الحدادون في السودان الغربي (628-1000هـ/ 1230-1591م) في ضوء تقارير الحفائر الآثارية

أ.د. سوزي أباظة (*)

- **مُلخص:**

شهدت منطقة السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي (628-1000هـ/1230-1591م) ظهور نشاط متعدد من الحرف المختلفة قام بها مجموعة من الحرفيين المتخصصين، ونظرًا لأهمية دراسة أحوال الحرفيين ونشاطهم الحرفي، فقد كان من اللازم التعرض بالبحث والدراسة لهم واختيار أهم الحرفيين في السودان الغربي وهم الحدادون ليكونوا حالة دراسية باعتبارهم أهم الحرفيين الذين كانوا موجودين في السودان الغربي في تلك الفترة.

فقد استطاع هؤلاء الحدادون أن يحتفظوا بأصول وتقنيات حرفتهم لأجيال متعاقبة، وكان لهم دور بارز بما قدموه من منتجات وبخاصة الأسلحة التي سهلت عمليات التوسع الذي شهدته دولتا مالي وصنغي، وقد أسهم هؤلاء أيضًا في تقديم أدوات ساعدت على حركة المجتمع من خلال ما أنتجوه من صنائع مختلفة متعددة الاستخدام.

وتهدف هذه الدراسة إلى بحث أصول هؤلاء الحدادين، ومعرفة تقنيات حرفتهم، وأهم الأدلة الآثارية لوجود حرفتهم ومعرفة مظاهر حياتهم الاجتماعية، وقد تبين لنا من خلال قراءة الدراسات التاريخية لمنطقة السودان الغربي أنه ليس هناك دراسة خاصة عن هذا الموضوع رغم أهميته، وأن ما كتب عنه قليل جدًا ومتناثر في الدراسات الحديثة التي ذكرت إشارات عابرة عنهم ضمن رصدها للحرفيين عامة ولم يتعد ما كتب عن صفحة أو صفحتين، ومن ثم كان اختيار موضوع الحدادين في السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي.

الكلمات المفتاحية: الحدادون، الحفائر الآثارية في السودان الغربي، مالي، صنغي

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بقسم التاريخ بكلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

Blacksmiths in Western Sudan (628-1000 AH / 1230-1591 AD) According to Archaeological Excavations

Prof. Dr. Suzi Abaza

- **Abstract**

During the era of the Mali and Songhay states (628-1000 AH/1230-1591 AD), the Western Sudan region witnessed the emergence of multiple activities in different crafts carried out by a group of specialized craftsmen. Given the importance of studying the conditions of the craftsmen and their craft activity, it was necessary to research and study them and choose the most important craftsmen. In Western Sudan, they are blacksmiths to be a case study, as they are the most important craftsmen who were present in Western Sudan at that period.

These blacksmiths were able to preserve the origins and techniques of their craft for successive generations, and they played a prominent role in the products they provided, especially weapons, which facilitated the expansion processes witnessed by the countries of Mali and Song. They also contributed to providing tools that helped the movement of society through the various crafts they produced. Multi-use.

This study aims to examine the origins of these blacksmiths, know the techniques of their craft, the most important archaeological evidence for the existence of their craft, and know the aspects of their social life. It has become clear to us through reading historical studies of the Western Sudan region that there is no special study on this subject despite its importance, and that little has been written about it. It is very scattered in recent studies that mentioned passing references about them as part of their monitoring of craftsmen in general, and what was written did not exceed one or two pages. Hence, the topic of blacksmiths in Western Sudan during the era of the Mali and Songhay states was chosen.

Key words: Blacksmiths, Archaeological Excavations in Western Sudan, Mali, Songhay

- **مقدمة:**

شهدت منطقة السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي (628–1000هـ/1230–1591م) ظهور نشاط متعدد من الحرف المختلفة قام بها مجموعة من الحرفيين المتخصصين، ونظرًا لأهمية دراسة أحوال الحرفيين ونشاطهم الحرفي، فقد كان من اللازم التعرض بالبحث والدراسة لهم واختيار أهم الحرفيين في السودان الغربي وهم الحدادون ليكونوا حالة دراسية باعتبارهم أهم الحرفيين الذين كانوا موجودين في السودان الغربي في تلك الفترة.

فقد استطاع هؤلاء الحدادون أن يحتفظوا بأصول وتقنيات حرفتهم لأجيال متعاقبة، وكان لهم دور بارز بما قدموه من منتجات وبخاصة الأسلحة التي سهلت عمليات التوسع الذي شهدته دولتا مالي وصنغي، وقد أسهم هؤلاء أيضًا في تقديم أدوات ساعدت على حركة المجتمع من خلال ما أنتجوه من صنائع مختلفة متعددة الاستخدام.

وتهدف هذه الدراسة إلى بحث أصول هؤلاء الحدادين، ومعرفة تقنيات حرفتهم، وأهم الأدلة الآثاريةلوجود حرفتهم ومعرفة مظاهر حياتهم الاجتماعية، وقد تبين لنا من خلال قراءة الدراسات التاريخية لمنطقة السودان الغربي أنه ليس هناك دراسة خاصة عن هذا الموضوع رغم أهميته، وأن ما كتب عنه قليل جدًا ومتناثر في الدراسات الحديثة التي ذكرت إشارات عابرة عنهم ضمن رصدها للحرفيين عامة ولم يتعد ما كتب عن صفحة أو صفحتين، ومن ثم كان اختيار موضوع الحدادين في السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي.

وقد تم الاعتماد في هذه الدراسة على عدد من المصادر الأصلية والمراجع والدوريات الحديثة سواء العربية أو الأجنبية، وهناك مادة جديدة كشفت لنا كثيرًا من الحقائق عن الحدادين وحرفتهم جاءت من خلال نتائج الاكتشافات الآثارية التي تمت في منطقة السودان الغربي.

على الرغم من أن الأدلة الآثارية المرتبطة بالصناعات الحديدية في السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي تعتبر شحيحة للغاية، فقد توفر للباحثة بعد كتابة البحث

– ونشره بحالته الأولى في مجلة الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة معهد البحوث والدراسات الأفريقية في العدد (33) عام 2011م– عدد من الأبحاث تضمنت أدلة آثارية تعود إلى فترات زمنية طويلة ومتعاقبة شملت فترة البحث عن حرفة الحدادة وتقنياتها والصناعات الحديدية ومناطق تصنيع الحديد في دولتي مالي وصنغي، ومن أهم تلك الدراسات:

- Togola, T., (1996), Iron Age Occupation in the Méma Region, Mali, The African Archaeological Review, 13:2.
- Takezawa, S., Cisse, M., (2012), "Discovery of the Earliest Royal Palace in Gao and its Implications for the history of West Africa", Cahiers d'études Africaines 208.
- Nixon, S., (2009),Excavating Essouk-Tadmakka (Mali): New archaeological investigations of early Islamic trans-Saharan Trade, Azania: Archaeological Research in Africa 44:2.

كما تمت الاستفادة من الإشارة التي كشفها علم الآثار الأثنوجرافي كأحد مداخل لدراسة نشاط المجتمعات الأفريقية التقليدية والمعاصرة وعلاقتها بالمجتمعات القديمة في معرفة تأصيل الدور الطقسي للحدادين في الممالك القديمة والحديثة مثل دراسة:

- Bocoum, H., (ed.) (2004). The Original of Iron Metallurgy in Africa New Light on its antiquity; West and Central Africa, UNESCO Publishing.
- David, N., Kramer, C., & Nicholas, D. (2001). Ethnoarchaeology in Action. Cambridge University Press.

وقد تم تقسيم الدراسة إلى عدد من النقاط الرئيسية على النحو التالي:

أولاً: العوامل المشجعة على النشاط الحرفي للحدادين.

ثانيًا: العناصر الأثنية للحدادين.

ثالثًا: صهر الحديد وتقنيات حرفته.

رابعًا: أهم الأدلة الآثارية لوجود صناعة الحديد.

خامسًا: منتجات الحدادين واستخداماتها.

سادسًا: مظاهر الحياة الاجتماعية للحدادين.

أولاً– العوامل المشجعة على النشاط الحرفي للحدادين:

توفرت عدة عوامل ساعدت على تشجيع النشاط الحرفي للحدادين في منطقة السودان الغربي[1]، ومن أهم هذه العوامل انتشار وجود خام الحديد في المنطقة مما شجع على استخراجه وممارسة حرفته التي كانت من أقدم الحرف هناك، وكذلك احتفاظ البعض بأسرار تلك الحرفة التي ظلوا يتوارثونها بعضهم عن بعض لأجيال كثيرة متعاقبة، ولهذا تفوقوا في أداء تقنياتها المختلفة، أضف إلى ذلك التطور السياسي والحضاري الذي شهدته منطقة السودان الغربي خلال العصر الإسلامي وقيام دولتين إسلاميتين هما: مالي وصنغي (628–1000هـ/ 1230–1591م)[2] شجع حكامهما على الإقبال نحو الحرف التقليدية للسكان ومنها حرفة الحدادة وما تنتجه من أدوات ساعدت علىتوسع تلك الدول والازدهار الحضاري فيها.

وسوف نتناول كل عامل من هذه العوامل المشجعة على النشاط الحرفي للحدادين بشيء من التفصيل:

---

(1) يرجع الفضل إلى المؤرخين والجغرافيين العرب في أنهم أطلقوا مصطلح السودان على الشعوب التي تقطن جنوب الصحراء الكبرى، أما مصطلح السودان الغربي فهو يطلق على المنطقة التي تمتد من جنوب الصحراء الكبرى والممتدة بين المحيط الأطلنطي غربًا وبحيرة كوري شرقًا وتحدها الصحراء الكبرى شمالاً والغابات الاستوائية جنوبًا وتقع بين خطي عرض 11، 17 شمالاً. انظر: ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت 1970م، ص 10؛ ابن رستة: الأعلاق النفيسة، طبعة بريل، ليدن 1892م، ص99؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة بريل، ليدن 1877م، ص 341.

(2) وتعتبر دولتا مالي وصنغي من أكبر الدول الإسلامية التي قامت في منطقة السودان الغربي خلال الفترة (628–1000هـ/ 1230–1591م) وشهدت ازدهارًا حضاريًا وحرفيًا، وللمزيد من التفاصيل حول هاتين الدولتين. انظر: د. إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973م، ص74.

وحول دولة صنغي انظر: عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493–1591م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1971م.

د. إبراهيم طرخان: إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الثامن. 1981م.

أولاً– انتشار خام الحديد بمنطقة السودان الغربي:

يعتبر وجود خام الحديد قريبًا من سطح الأرض في منطقة السودان الغربي من أهم العوامل التي أدت إلى وجود هذه الحرفة وعمل الحدادين بها، فقد كان خام الحديد ينتشر بصورة كبيرة قربسطح الأرض، وكذلك توفر الفحم النباتي نتيجة لوجود الغابات التي كانت من أهم الأسباب التي شجعت على ممارسة تلك الحرفة[1]. فقد وجد خام الحديد في القشرة الأرضية في المناطق المدارية، وأيضًا في الصخور الحديدية فقد وجد في صخور الهيماتيت التي كانت تحتوي على أعلي نسبة من خام الحديد؟ وتعد هذه الصخور هشة نسبيًا ويسهل الحفر خلالها مادامت رطبة ومغطاة بطبقة رقيقة من التربة، وخام الحديد في السودان الغربي كان من نوع الرملية أو الهيماتيت الذي يسهل التعرف عليه بسهولة في الطبيعة[2]. وكان تعدين الحديد من السمات المميزة للنشاط الاقتصادي في السودان الغربي في فترات زمنية كثيرة[3]، والحديد الذي يتم الحصول عليه بهذه الطريقة كان يتم تكسيره إلى قطع صغيرة يختار منها يدويًا ما يصلح للصهر.

تؤرخ بعض الدراسات الحديثة بداية معرفة واستخدام الحديد في أفريقيا للفترة بين 3000–2500ق.م[4]. كما توجد أدلة آثارية على تعدين الحديد في أجزاء من نيجيريا والكاميرون ووسط أفريقيا ربما ترجع للفترة 2000ق.م[5]. في حين أكدت المكتشفات الآثارية بأن ثقافة

(1) Trigger, B, G: The Myth of Meroe and the African from Age, AHS, Vol. 2, No.16.1969, p. 47.

(2) م. بوسنانسكي: المجتمعات الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى في العصر الحديدي المبكر، المجلد الثاني تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، 1985م، ص 735.

(3) Mcintosh, Roderick. J, The peoples of the Middle Niger the Islamd of Gold, BlackWell Publishers, USA, 1998, pp. 31, 32.

(4) Eggert, M. (2014). "Early Iron in West and Central Africa", In Breunig, P (ed). Nok: African Sculpture in Archaeological Context. Frankfurt, Germany: Africa Magna Verlag Press, pp. 55-58.

(5) Holl, A. (2020). "The Origins of African Metallurgies", Oxford Research Encyclopedias. 22(4), pp. 415-438.

النوك في نيجيريا ربما مارست صهر الحديد منذ عام 1000 قبل الميلاد[1]. وأظهرت الحفائر التي أجريت في جينواي – جينواو Jenne-Jeno القريبة في وادي النيجر في مالي عام 1977 على أدلة على إنتاج وتصنيع الحديد منذ 2500ق.م[2].

وقد كشفت نتائج البحوث الآثارية التي أجريت على كثير من المواقع الموجودة في السودان الغربي أن هناك مواقع كثيرة اشتهرت بإنتاج الحديد وصهره طبقًا للدراسة التي قام بها موني (Mouny.R)[3].

وتدل الاكتشافات الآثارية على قدم ممارسة هذه الحرفة هناك، فقد بين كربون 14 المشع تواريخ تتراوح ما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد في منطقة نيجيريا الوسطي، وكذلك حفريات أخري أجريت في وادي النيجر دلت على وجود الحديد في القرن الثاني قبل الميلاد[4].

فقد مكَّن اختراع التأريخ بتقنية الكربون المشع في أواخر خمسينيات القرن الماضي من تأريخ المواقع المعدنية في أفريقيا من خلال عينات من وقود الفحم المستخدم في صهر وتشكيل المعدن، وبحلول أواخر الستينيات من القرن الماضي، تم الحصول على بعض التواريخ المبكرة بالكربون المشع لمواقع صهر الحديد في كل من النيجر ووسط أفريقيا تعود إلى 3600 قبل الميلاد[5]، مما ساهم في التأكيد على الرأي القائل بأن

(1) Miller, D., Van Der Merwe, N. (1994) "Early Metal Working in sub Saharan Africa", Journal of African History 35, pp. 1-3.

(2) McIntosk, R., McIntosh, S., (1981 "The Inland Niger Delta Before the Empire of Mali: Evidence from Jenn-Jeno", The Journal of African History 22, No. 1, (1981), 12.

(3) FAGAN. B.M.: Radiocarbon dates for sub-Saharan, Africa IV, JAH vol. VII, No. 111, 1967, pp. 510, 515, 516.

(4) ثورستان شوا: أفريقيا الغربية في ما قبل التاريخ، تاريخ أفريقيا العام اليونسكو، المجلد الأول، المشرف على المجلد.ج.كي زيربو، ص 638.

(5) Diop, C. A. (1976). L'usage du fer en Afrique. Nyame Akuma 53, pp. 93-95.

صناعة الحديد قد ابتكرها الأفارقة بشكل مستقل في أفريقيا جنوب الصحراء مما أضعف بدوره الرأي القائل بأنها انتقلت بفضل تأثيرات من وادي النيل أو الساحل الفينيقي(1).

وفي مدينة جنيو أشارت الحفريات إلى وجود صناعة التعدين وتوفر مادته الخام في القرن الثالث قبل الميلاد(2)، كذلك كشف علماء الآثار عن أماكن لاستخراج الحديد حول موقع نياني والتي كان خام الحديد فيها من النوع الجيد(3).

وتم اكتشاف مقابر للدفن بالقرب من مصب نهر السنغال، وبداخل هذه المدافن عثر على آلات حديدية وأساور نحاسية، مما يدل على وجود هذه الصناعة هناك في تلك الفترة المبكرة(4) وكان الحديد وفيرًا في جبال الماندي(5).

كذلك وجدت في مدينة تادمكة بقايا لخام الحديد وبعض بقايا أدوات حديدية كلها تقدم دليلاً على عملية صهر الحديد(6)، وأيضًا وجدت في مدينة جاو بقايا لسبج الحديد في جميع طبقاته الآثارية(7).فقد تعددت الآراء حول أصول الصناعات الحديدية في أفريقيا وكانت مصدر جدل كبير بين المتخصصين(8).

---

(1) Tigger, B. G (1969). The myth of Meroe and the African Iron Age. International Journal of African Historical Studies 2, pp. 23-50.

(2) انظر الخريطة رقم (1).

نياني: مالي والتوسع الثاني للماندانغ، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، اليونسكو، 1997م، ص130.

(3) المرجع السابق، ص 176، ونفس الخريطة.

(4) ب واي. آنداه: غرب أفريقيا قبل القرن السابع، المجلد الثاني، اليونسكو 1985م، ص 630.

(5) نياني: مرجع سابق، ص 149.

(6) Nixon, S., (2009) Excavating Essouk-Tadmakka (Mali): New Archaeological Investigations of Early Islamic trans-Saharan Trade, Azania: Archaeological Research in Africa, 44:2, pp. 236-239.

(7) Takezawa, S., Cisse, M., (2012) "Discovery of the Earliest royal palace in Gao and its implications for the history of west Africa, Cahiers d'études africaines, 208, p. 9.

(8) فقد زاد الاهتمام بدراسة والتحقيق في أصل انتشار الصناعات الحديدية في غرب أفريقيا تزامنًا مع مبادرة اليونسكو بعنوان طرق الحديد في أفريقيا، وعقد مؤتمر عن الصناعات الحديدية المبكرة في

ويرى البعض أن مجتمعات الصحراء الكبرى تبنت تقنية الحديد وتصنيعه نتيجة لاتصالها المباشر بمجموعة من البربر الذين نقلوا هذه الثقافة الخاصة بمبادئ تقنية الحديد إلى المنطقة بعد أن هاجروا إليها[1].فقد ذُكر أن هذه التقنية انتقلت من قرطاج عبر الصحراء إلى غرب أفريقيا أو من مروي في أعالي النيل إلى وسط وغرب أفريقيا[2].

فقد قام العالم هيوارد (Huard) بدراسة لبعض الآثار في المنطقة شملت سروج الجمال والأسلحة الحديدية وبعض الرسوم الصخرية في مواقع عبر الصحراء الكبرى، وقد ترتب على ذلك افتراض وجود طريقين من خلالهما عبرت تقنية الحديد وتصنيعه إلى أفريقيا جنوب الصحراء، أحدهما يخترق ليبيا جنوبًا إلى غرب تشاد، والآخر يشبه شبكة الطرق التجارية التي أسسها العرب في منطقة السودان الغربي خلال العصر الإسلامي[3].

وهناك من يقول بأصالة ثقافة العصر الحديدي في أفريقيا جنوب الصحراء وأن تقنية استخدامه تم ابتكارها هناك، واستندوا إلى أن تقنية صهره في غرب أفريقيا مختلفة عن أي تقنية في الشمال، وأن الاكتشافات الآثارية يرجع تاريخها إلى فترة مبكرة[4].

أفريقيا ونشر كتاب عام 2004م وكان يتضمن عدد من الأبحاث لعلماء آثار وأنثروبولوجيا ومهندسين في المعادن عن أصل الصناعات الحديدية في أفريقيا.

- Bocoum, H. (ed.) (2004). The Origins of Iron Metallurgy in Africa New Light on its antiquity; West and Central Africa, UNESCO Publishing.

الكتاب متاح أونلاين على موقعاليونسكو

https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000133843

(1) Shinine, P.L, & Haaland, R. (EDS): African Iron Working: Ancient and Traditional, New York Norwegian University press 1985, p. 13.

(2) Holl, A. (2020). "The Origins of African Metallurgies", Oxford Research Encyclopedias. 22(4), pp. 415-416; Van Der Merwe, N. (1980) The advent of iron in Africa. In the Coming of the Age of Iron, Wertime, T., Muhly, J. (eds.), New Haven: Yale University Press, pp. 463-465.

(3) Shinnie, P.L. & Haaland, R. (EDS): op. cit., p. 13.

(4) Oliver, R,: The Problem of the Bantu Expansion, JAH, Vol. 7, No. 3. 1966, p366.

ولقد بينت الاكتشافات الآثارية تباعًا في نهاية القرن العشرين في مواقع متعددة في وسط وغرب أفريقيا بما لا يدع مجالاً الشك في الأصول المحلية لتلك الصناعة[1].

وهكذا نؤكد على حقيقة هامة وهي قدم ممارسة حرفة الحدادة في منطقة السودان الغربي نظرًا لوجود خام الحديد بها منذ القدم مما شجع على ممارسة تلك الحرفة الهامة.

العامل الثاني: احتفاظ البعض بأسرار هذه الحرفة:

لما كانت حرفة الحدادة تحتاج إلى مهارة فائقة فقد ظلت هذه الحرفة طوال تاريخها حكرًا على مجموعة قبائل معينة يتوارثونها ويحتفظون بأسرارها[2]ومن أشهر القبائل التي احتفظت بأسرار هذه الحرفة واشتهرت بممارستها قبائل الصوصو، تلك القبائل التي كانت تستقر جنوب القبائل السوننكية في سفوح جبال كوليكور ويعتبر هذا الفرع من مجموعة المالنكية التي تخصصت في صناعة الحديد[3].

تعتبر حضارة نوك Nok التي قامت في بلدان أفريقيا الغربية من أهم مناطق العصر الحديدي المبكر والتي تمثل استقلالية في ثقافة العصر الحديدي في أفريقيا الغربية دون أن تتأثر بالشمال خاصة وأنها عرفت صناعة الحديد منذ 500 سنة قبل الميلاد وكانوا يلمون بكل أساليب صناعته، وقد اشتهرت حضارة نوك بالتماثيل الطينية المحروقة صغيرة الحجم للبشر والحيوانات وعرفت باسم تيراكوتا Terrcotta وقد شجعت على تقنية نوك في صهر الحديد بعض المؤرخين على القول بان ثقافة العصر الحديدي نشأت مستقلة عن أي تأثيرات قادمة من الشمال انظر:

- Phillipson, D, W.: African Archaeology, Cambridge University Press 1985, p164.

واي– آنداه: مرجع سابق، المجلد الثاني، ص 625، 632.

وهناك رأي يذكر أن ثقافة العصر الحديدي ذات أصول غريبة عن مجتمعات جنوب الصحراء وأنها جاءت في فترة متأخرة نسبيًا عن آسيا انظر:

- FAge, j.D (E.D.): The Cambridge History of African from c. 500 BC. To AD. 1050 Vol 12, London & New York Cambridge university press 1978, p388.

وهناك رأي آخر يؤكد على أصالة ثقافة العصر الحديدي في غرب القارة حيث ساحل غينيا انظر:

- Shinnie, P.L. & Haaland, R. (EDS): Op. cit, pp. 11, 12.

(1) Eggert M. (2014), op. cit., pp. 55-58.

(2) ب– واي– آنداه، مرجع سابق، مجلد 2، ص 626.

(3) نياني، مرجع سابق، ص 129.

وقد رسخ في أذهان الأهالي في السودان الغربي أن أصحاب الحرف المختلفة لابد أن يكونوا من الأقارب ومنهم الحدادون الذين كان لهم زعيم ويعتبرونه سليل الأسلاف، وهو الوسيط بين الأسلاف والأرواح المحلية، فهو وحده المسئول عن الحفاظ على هذا الحلف. وبمقتضي هذه المكانة كان يمنح الحدادين حقوقًا انتفاعية، ويمدهم بالشعائر والطقوس باعتبارهم الملاك الحقيقيون أو الفعليون للحديد، وهو يحتفظ بأسرار هذه الحرفة ويعتبرها من الأشياء المقدسة التي لا يجب كشف أسرارها لأحد إلا لأصحاب الحرفة ورجالها فقط[1]. وقد أدي هذا العمل إلى احتفاظهم بأسرار هذه المهنة ومن ثم فقد حافظوا على حرفتهم هذه من الضياع، وظلوا يملكون زمام أسرارها أجيالا متعاقبة خلال العصر الإسلامي.

العامل الثالث: التطور السياسي والحضاري الذي شهدته منطقة السودان الغربي:

ارتبط هذا التطور ارتباطًا شديدًا بتشجيع حرفة الحدادة، فقد اهتمت الدول التي ظهرت هناك بتوفير ماتحتاجه هذه الحرفة من مواد أولية لكي تساعد الحدادين على العمل في الورش، فكانت دولة مالي على سبيل المثال تحصل على النحاس الذي كان لازمًا لهذه الصناعة من مدينة تاكدا[2]. كذلك اهتم حكام دولة صنغي بالصناع والحرفيين، ومنهم بالطبع الحدادون، فاهتموا بطوائفهم الحرفية وجعلوا لهم أحياء خاصة بهم، وهو ما أكدته الكشوف الآثارية حول مدينة چاو[3].

---

(1) FuglestAd By finn: Arecolnsideration of Hausa History Before the jihad, journal of African History, x.x, 3 (1978), p. 324.

(2) مدينة تكدا كان يوجد بها معدن النحاس الذي يحفر عليه في الأرض، ويقوم العبيد بتسبيكه، وكانت مباني أهل تكدا مبنية من الحجارة الحمراء وماؤها يجري على معدن النحاس فيتغير لونه وشكله، وكان أهل تكدأ يعملون بالتجارة. انظر:

ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، بيروت د.ت، ص540، 541.

(3) محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشره هوراس ودولافوس، باريس 1913م، ص41.

وقد ساهم التوسع العمراني الذي شهدته مدن السودان الغربي وبخاصة في المدن المشهورة مثل تنبكت وچني وغيرهما من المدن الحضرية في تشجيع الإقبال على الحرف التقليدية للسكان في تلك المدن الحضرية، كذلك كان للتوسع الذي حدث في دولتي مالي وصنغي أثره الكبير في زيادة الطلب على السلاح الذي ينتجه هؤلاء الحدادون لسد حاجة الجيش ومساعدته بصورة مستمرة للقيام بهذه التوسعات(1)التي زادت من هيبة الدولة في عيون محكوميها وجيرانها.

بالإضافة إلى ازدهار حركة التجارة عبر الصحراء منذ دخول الإسلام إلى هذه المنطقة وزيادة الطلب على موارد السودان الغربي وتأسيس أول اتصال حقيقي مع التجارة العالمية(2)، وكان خام الحديد ومنتجاته من ضمن السلع المطلوبة.

وهكذا تجمعت تلك العوامل التي شجعت على قيام حرفة الحدادة في السودان الغربي، فما هي العناصر الإثنية التي قامت بهذه الحرفة؟

ثانيا– العناصر الإثنية للحدادين:

تميز مجتمع السودان الغربي بتعدد إثنياته المختلفة التي يتكون منها نسيج هذا المجتمع، وهذا التميز والتعدد كان واضحًا أيضًا في ممارسة تلك الإثنيات للحرف المختلفة التي شاع انتشارها هناك. فمن أهم الإثنيات العرقية التي تخصصت في حرفة

- Charlotte, Beck: The oxford companion to Archaeology, Oxford University Press, New York 1996, p 8.

(1) حول توسعات دولتي مالي وصنغي. انظر تفاصيل ذلك عند محمود كعت، مصدر سابق، ص 70، 76، 77. السعيدي: ملوك السودان أهل سنغي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، نشر، هوداس، مطبعة أنجي، باريس 1898، ص 74، 78، 102، 108.

(2) وتجدر الإشارة إلى وجود نشاط تجاري واضح قبل الفتح الإسلامي للمغرب وذلك عبر الصحراء الرومانية والقرطاجية والجرامنية. ولمزيد من التفاصيل انظر:

- Liverani, M. (2000) Looking for the southern frontier of the Garamantes. Sahara 12, pp. 31-44; Garrard, T. 1982, Myth and Metrology: the early trans-Saharan gold trade. Journal of African History. 23, pp. 443-461.

الحدادة جماعة البمبارة الذين استقروا على امتداد نهر النيجر الأوسط، فكان هؤلاء يشترون الحديد من التجار ويسافرون به ويقومون بتشغيل تماسيح لصهر الحديد[1].

ومن أهم العناصر الأخرى التي عملت في هذه الحرفة حفائد جَمْ كريا، التي نسجت أساطير حولها، وهم أصل ملوك سنغي، وكان منهم فرع ينتمي إلى الحدادين النصارى الذين يرجع إليهم الفضل في تخليص مدينة كاغ من الحوت المسيطر عليها، وذلك باستخدام سلاح من الحديد تم تجهيزه عن طريق هؤلاء الحدادين[2]، الذين كانوا من حفائد جَمْ كريا واليهم يرجع أصل كل حداد.

وهناك قبائل أخري احترفت حرفة الحدادة في السودان الغربي، وهم قبائل الصوصو الذين اشتهروا بقوتهم السحرية، فكان زعيمهم يملك قوة سحرية ساعدته على التغلب على شعب غانا بسحره الذي أبطله بعد ذلك ماري جاطة (سندياتا) (650-675هـ/ 1230-1255م) ونجح في الانتصار عليه وتخلص من سيطرته على شعب السوننكي[3]. وبذلك يتبين لنا أن قبائل الصوصو كانت من أهم القبائل التي احترفت حرفة الحدادة، والتي ارتبطت في أذهان الكثيرين بالأعمال السحرية.

وقد تحدث محمود كعت عن أسماء قبائل أخري عملت بالحدادة ودخلت في حوزة آسكيا محمد الأول (899-934هـ/ 1493-1528م) الذي ورث جميع أراضي

(1) هوبكنز: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998م، ص 86.

(2) محمود كعت: مصدر سابق، ص 29، 30.

(3) د. إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973م، ص 39-43. فقد نجح سندياتا (ماري جاطة) في الانتصار على ملك الصوصو عند كيرينا عام 1235م- زيربو: تاريخ افريقيا السوداء، ترجمة شلبي الشام، دمشق وزارة الثقافة 1994م، ص 208.

وكان ملك الصوصو سومانجورو هو الذي برع في السحر، وتذكر الروايات الشفوية أن سومانجورو ورغم علمه بالسحر فإنه أصيب بسهم مسحور، وهو يدل على تحكم السحر في ذهنيات المجتمع السوداني. انظر: أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، المجمع الثقافي، أبوظبي 1999م، ص180، 181.

سنيبارو، والتي تمتد من كنت إلى سبردك، وكان بها أربع وعشرون قبيلة خصصت كل قبيلة لعمل معين، منهم من قام بحراثة الأرض، ومنهم من حمل السلاح، ومنهم من كان يخدم أهل بيته.لكن القبيلة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة من هذه القبائل كانت من الحدادين، وهم قبائل جَمْ تين، وجَمْ وَل، وسرُبني، وقبيلة وكُم وقبيلة سَمثَّاك، وهذه الأسماء الخمسة كلهم كانوا أخوة من أب واحد وكان عبدًا لدي النصارى، وكان حدادًا هرب من جزائر البحر المحيط إلى كوكيا، وتزوج أمة فولدت له خمسة أولاد ذكور، هم: تينْ وهو أبو قبيلة جَمْ تين، ووَل وهو أبو قبيلة جَمْ وَلَ، وسُرُنَيَ وهو أبو قبيلة سُرَنَبي، وكم وهو أبو قبيلة كُم، وسَمْثَّاكُ وهو أبو قبيلة سَمُثَّاكُ. وهؤلاء نسبوا إلى آبائهم، ومن صلبهم خرجت القبائل السالفة الذكر[1] وقد تفرق هؤلاء الأبناء الخمسة في البلدان، وتفرع منهم بشر وقبائل كثيرة مارست حرفة الحدادة التي ورثوها عن أجدادهم الأوائل منذ زمن سني بارو قبل أن يتفرقوا.

وقد ظهرت قبائل أخري اشتهرت بحرفة الحدادة، منها قبائل الماغوزاوا وهم الحدادون القادمون من آيير[2].كما ظهرت طائفة من عمال الفنون الحديدية سموا في زمن دولة صنغي الزوجوران (ZogoRAN) أو الزوجو (Zugu) والزوچوروما (ZuguRiAMA) أو الزوروماوا (ZoRoMAWA) وهؤلاء أتوا إلى البلاد مع هجرات كيسارا (KiSARA) أو الزغاوة (ZAgHAWA)[3] وهذه الجماعات الأثنية للحدادين كانت متميزة، واشتهرت أسر كثيرة منهم بتلك المهارة في هذه الصناعة، وقد استفادت منهم الدولة أيضًا في مجالات عديدة[4].

(1) تاريخ الفتاش، ص 57، 58.

وفي موضع آخر يذكر كعت أن قبيلة سرنبي وقبيلة جم ول وجم ولي وسرنبي أمهم عربية وأبوهم حداد من ماسني. انظر: نفس المصدر، ص 71.

(2) زيربو: تاريخ أفريقيا السوداء، ترجمة عقيل الشيخ حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا 2001م، المجلد الأول، ص 247.

(3) PAlmer: Sudanese Memoirs, vol.3, London 1967, P. 82.

(4) Roland oliver & Anthong Atmore: Medieval Africa 1250-1 800, Cambridge university press, united kingdom 2001. Pp. 69, 70.

وهكذا يتضح لنا أن الحدادين كانوا من أبناء مجموعات إثنية واحدة فلم يكونوا من عناصر عرقية مختلفة، ولهذا كانوا عنصرًا متميزًا نتيجة لانتمائهم لعنصر عرقي واحد مما كان له أكبر الأثر في زيادة تمسكهم بعضهم ببعض، وهذا على العكس من بعض أصحاب الحرف الأخرى الذين كانوا أجناسًا عرقية متعددة، وأحيانا كانت تجمعهم صلة قرابة فيما بينهم(1).

ثالثًا- صهر الحديد وتقنيات حرفته:

كان الذي يقوم بعملية صهر خام الحديد مجموعة من الأشخاص الحرفيين الذين يقع على عاتقهم القيام بهذه المهمة، ومن الأرجح أن تقنيات الصهر كانت واحدة ومستمرة منذ العصر الحديدي في منطقة السودان الغربي، وحافظ عليها الحدادون الذين كانوا يقومون بعملية صهر خام الحديد الذي كان من الأنواع الرملية أو الهيماتيت والذي كان يسهل التعرف عليه في الطبيعة، كما سبق القول.

وهذا الحديد الخام كان يجري له عملية تحميص، ثم عملية جرش تتبعها مرحلة غسل المادة الخام المجروشة مرة أو مرتين لكي يتخلص الخام من الشوائب الطينية والأملاح، ومن مزايا غسل المادة الخام أن وجود الخام مبللاً بالماء داخل الفرن يمنع من تبعثره بين قطع الوقود أثناء عملية الصهر، وبعد ذلك يدخل الخام إلى الأفران المملوءة بالوقود(2).

وهذه الأفران كانت توجد داخل حظائر مبنية من الطين ولكل منها باب خاص، وكان ارتفاع هذه الحظائر يتراوح ما بين المتر ونصف المتر، وهي ليست معروشة، وداخل كل حظيرة يوجد فرن مبني من الطين ويشغل منطقة دائرية قطرها يتراوح ما بين

(1) LaViolette, Adria: Ethno- Archaeology in jenne Mali, Craft and Status Among Smiths, Potters and Masons, Cambridge Monographs in African Archaeology 2000, p.20.

(2) Shinnie, P. L. & Haaland, R (EDS): op. cit., p 14.

المتر والمترين[1]. وهذه الأفران التي كانوا يعدونها بشكل خاص كانوا يحافظون على توفير حرارة عالية لها بصورة مستمرة حتى يتم فصل الحديد من المواد الخام[2].

ويتم بعد ذلك استخراج كتلة الحديد المسامية بعد أن تتم عملية الصهر، ويتم كسرها إلى قطع صغيرة ثم يتم صهرها مرة ثانية لكي تتلخص من الشوائب العالقة بها، وهذه الطريقة في صهر الحديد كانت هي الطريقة المفضلة وجري العمل بها في أفريقيا جنوب الصحراء مما يدل على تأثير حضارة نوك المزدهرة في هذه المنطقة[3]. وهذا العمل في مناجم الصهر كان يحتاج إلى أعداد من العمال بصورة مستمرة، وكان هؤلاء العمال عادة من الرقيق وبعض أسري الحروب والذين كانوا يقومون على استخراج هذا المعدن وصهره في الأفران.

وقد مارس هؤلاء الحدادون مهمتهم تلك في أماكن واسعة، واستخدموا أدوات وأوان كبيرة الحجم كانوا يضعون فيها المعدن الساخن بعد صهره في الأفران التي أعدت لذلك[4]. وكانت عملية الصهر هذه تتم في الصباح الباكر وتنتهي قبل الغروب، وكان الفرن يكسر ويستخرج ما بقي فيه من الحديد[5]، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة ثانية وهي الصب والطرق، وكانت تتم على يد مجموعة أخري من الحرفيين الذين كانوا أكثر تقنية من الأولين وهم الفنيون الذين كانوا يقومون بعملية تشكيل المادة كيفما يشاءوا.

وهؤلاء الفنيون كانوا يتركزون حول المواقع والمدن المشهورة التي يستخرج منها الحديد الخام[6]وكان لهم في السودان مكانة خاصة، فالذي كان يمارس هذه الحرفة كان

---

(1) انظر الشكل رقم (1) في الملاحق

(2) Miller, D, & Merwe, N. j.V. L.: Early Metal Working in sub Saharan Africa:A Review of Recent Research, jAH. Vol. 35, No 10, 1994, p. 26.

(3) Ibid, p. 26.

(4) Laviolette, Adria: op. cit., p. 39.

(5) محيي الدين صابر: التغير الحضاري في مجتمع أفريقي، دراسة ميدانية عن قبائل الازندي (نيام نيام) المكتبة المصرية، بيروت 1987، ص 394.

(6) Laviolette, Adria: op. cit., p. 38.

يخضع لبعض الطقوس التي كان يجب عليه الالتزام بها[1].وكان هؤلاء الفنيون ينتمون إلى قبائل ورثت هذا العمل، وكانوا يعملون في ورشات جماعية، ثم ينتقل العمل بعد ذلك إلى الأفراد الذين كانوا يتفوقون في هذا العمل اليدوي[2].

وقد ارتبطت عملية صهر الحديد وتصنيعه بعدة تقنيات وطقوس حافظ عليها الحدادون منذ قيام هذه الحرفة في منطقة السودان الغربي، ونرجح أنها نفس الطقوس التي ظلوا يحافظون عليها منذ القدم. ومن هذه الطقوس أن الذي يقوم بعملية استخراج الحديد وتصنيعه لابد أن يكون من الرجال، وأن عملية الاستخراج وإعداد وتصنيع الحديد كل هذه المراحل يحاط بها أسرار سحرية لا يعرفها ولا يطلع عليها إلا القبائل والجماعات التي تعمل بهذه الحرفة فقط[3]. وقد حظيت هذه القبائل التي تعمل بالحدادة باحترام كبير وتقدير لأنها تتعامل بالسحر والتعدين معًا، فقد كانت المهن التي ارتبطت بالنار يتوارثها أفرادها في إطار تجمعات عائلية وعشائرية يحفظون أسرار حرفتهم ويحافظون على قوتهم الاقتصادية بالإضافة إلى السحر الذي يرتبط بالنار، ويستطيع هؤلاء الحرفيون ضبطه واستعماله[4].

وكان السباك الذي يصهر الحديد ويستخرجه يخضع لبعض أنماط من السلوك، فكان يلقن طقوسًا خاصة بهذه المهنة، إذ كان يشرب شيئًا من الدواء، وكان عليه أن يتجنب المحرمات الغذائية المألوفة في مجتمعه، ويتجنب المحرمات الطقوسية ويمتنع عن معاشرة النساء، وكان عليه أن يلبس –كجزء من الطقوس في كل مرة يمارس فيها عمله لباسًا جديدًا من لحاء الشجر لا يكون قد مسه الدهن. وكان الغرض من هذه الطقوس فيما يبدو أن تكون له شخصية جديدة منفصلة عن شخصيته العادية، وهذا

(1) محيي الدين صابر، مرجع سابق، ص 377، 378.

(2) زيربو: مرجع سابق، القسم الأول، ص 273.

(3) محيي الدين صابر، مرجع سابق، ص 329.

(4) BALAnd, E.R & Forgeron Dictionnaries des crilisatis Africainea 1968, p. 182.

يقوي من فاعلية قواه السحرية[1] ويرجح أن يكون هناك ارتباط قوي بين الأعمال السحرية وبين من يزاولون حرفة الحدادة، كذلك كان المكان الذي يعمل فيه الحداد يعتبر من الأماكن المقدسة التي لا يجرؤ أحد أن يقترب منها[2]، وكان يحرم على النساء أن يقترين من مكان الصهر[3].

وعلى الرغم من أن الدراسات الأثنوجرافية تشير إلى مشاركة النساء في النشاط التعديني بشكل محدود، إلا أنهن من المؤكد لن يشاركن في الأعمال الخاصة بصهر وتشكيل المعادن[4].

وكان من عادات هؤلاء الحدادين أن يتزوجوا من داخل قبيلتهم[5] وقد ساعد هذا على توثيق العلاقة وشدة ترابطها فيما بينهم، وهذا ما جعلهم يتميزون عن بقية الحرفيين الآخرين[6].

وإذا كان للحدادين طقوس حافظوا عليها، فقد كان لهم كذلك تنظيم حرفي خاص بهم مثل بقية التنظيمات الحرفية الآخرى التي سادت في السودان الغربي، فكان لكل صناعة أو حرفة رئيس ومعلم، وكانت هناك رقابة على تقنيات هذه الحرفة وعلي أساليب الإنتاج وعلي معايير الصناعة والرقابة على الأسعار[7].

فقد أكدت نتائج البحوث الآثارية على أن الحدادين كونوا لأنفسهم مجموعات حرفية وارتبط بعضهم ببعض بصلات وثيقة، وتعاونوا في رفع كفاءة تقنيات حرفتهم إلى

(1) محيي الدين صابر، مرجع سابق، ص 394.

(2) المرجع السابق، ص 393.

(3) د.و. فيلبسون: بدايات العصر الحديدي، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني، اليونسكو، 1985، ص699.

(4) Emma George, R. "The Age of Iron in West Africa", In Heilbrunn Timeline of Art History. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2000.

(5) محمود كعت، مصدر سابق، ص 30؛ نياني: مرجع سابق، ص 182.

(6) Mcintosh, Roderick: the pulse Model: genesis and Accommodation of specialization in the Middle, journal of African History vol. 34, No. 2, 1993, p. 188.

(7) هوبكنز، مرجع سابق، ص 86.

الأحسن، حتى احتل تنظيمهم الحرفي مكانة متميزة بين بقية التنظيمات الحرفية الأخرى السائدة في السودان الغربي[1]. فقد تجمعوا في حي خصص لهم لا يسكنه أحد غيرهم، وكان لهم أيضًا في كل مدينة حي خاص بهم[2].

وداخل هذا التنظيم الحرفي كان القائمون عليه يحملون ألقابًا ذات دلالة على حسب تقنية أداء العمل، فكان منهم الأجير الذي كان يعمل مقابل الأجر وأيضًا الصنايعي الذي كان يتقن الصناعة ويتخصص فيها[3].

وترجع عملية تقسيم الحرفيين إلى طوائف إلى حاكم مالي سندياتا (ماري جاطة) الذي خصصللحدادين طائفة خاصة بهم، وأصبحت هذه الحرفة منذ ذلك الوقت وراثية، فالابن يرث حرفة أبيه[4]وأستمر هذا التنظيم قائمًا في عهد دولة صنغي.

وليس ببعيد أن احتفظت هذه التنظيمات بطقوسها في ممارسة تلك الحرفة، وبخاصة في المدن الكبرى التي عرفت هذه التنظيمات منذ وقت مبكر، وهذا ما أكدته الاكتشافات الآثارية حول مدينة چاو وچني، فقد أحتلت التنظيمات الحرفية للحدادين التنظيم الأول بين بقية التنظيمات الحرفية الأخرى[5]وتميزوا بإتقانهم لهذه الحرفة التي تفوقوا فيها[6].

كذلك اتسمت حرفة الحدادة عن بقية الحرف الأخرى في أنها لم ترتبط بوقت معين لإنتاجها، فقد كان هؤلاء الحدادون يعملون في كل الأوقات نظرًا لحاجة السكان إليهم وإلى منتجاتهم، فما هي الأدلة الآثارية التي تدل على وجود هذه الحرفة.

---

(1) Mcintosh, Roderick: op. cit., p. 187.

(2) Ibid, p. 187.

(3) زيربو: مرجع سابق، القسم الأول، ص 271.

(4) نياني: مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 145، 146.

(5) Charlotite Beck, op. cit., pp. 17, 18.

(6) C. C. Femesia: State of the Central Sudan Athous and years of West African, p. 96.

رابعًا- أهم الأدلة الآثارية لوجود صناعة الحديد:

تجدر الإشارة بأن الأدلة الآثارية التي ارتبطت بصناعات الحديدية في السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي تعتبر شحيحة للغاية، مقارنة بما طرحته المصادر التاريخية، ويرجع ذلك إلى طبيعة الطبقات الآثارية التي أُرِّخ لها في تلك الفترة، فقد كانت تشغل الطبقات الأعلى في المواقع، ومن ثم تعرضت لعمليات خلط وتدمير، كما أن معظم البعثات اهتمت بالبحث عن اللقى الآثارية التي لها قيمة فنية والتي يمكن أن تعرض في المتاحف ولم تهتم بباقي اللقى الأخرى[1].

وهناك تحدي آخر يعوق دراسة البقايا الآثارية المرتبطة بالصناعات الحديدية في السودان الغربي وهو أنه لا توجد قواعد آثارية ثابتة تساهم في تأريخ تلك البقايا الآثارية، بالإضافة إلى تقنية التأريخ بالكربون المشع غالبًا ما تقدم بيانات ذات سياق تاريخي واسع[2].

وعلى الرغم من تلك التحديات إلا أن هناك أدلة آثارية تم اكتشافها منها ما قدمته الحفائر الآثارية لجامعة لندن College of London University التي أجريت في مدينة تادمكة – المعروفة حاليًا باسم السوق في شمال مالي لموسم 2005م في تقديم أدلة آثارية عن التجارة عبر الصحراء، حيث كشفت الحفائر في الطبقات الآثارية التي ترجع للفترة من (1100–1300م) عن منتجات تجارية تشمل خرز وأوعية زجاجية وفخار مصقول وعملات نحاسية وفضية تؤرخ لنفس الفترة[3]، وضمت المكتشفات أدوات نحاسية حديدية، في حين بينت الطبقات الآثارية التي تؤرخ للفترة (1300–

(1) Togola, T., (1996), Iron Age Occupation in the Méma Region, Mali, The African Archaeological Review, 13:2, pp. 92-96.

(2) Ibid, p. 100.

(3) Nixon, S., (2009), Excavating Essouk-Tadmakka (Mali): New archaeological investigations of early Islamic trans-Saharan Trade, Azania: Archaeological Research in Africa 44:2, pp. 241-242.

1400م) تغيير كبير في زخارف الفخار وكثرة في المكتشفات لصهر وتشكيل الحديد[1].

كما قدمت نتائج الحفائر الآثارية دليل آخر على وجود صناعة الحديد في موقع ميما Mema التي كانت تقع في قلب ممالك السودان الغربي (غانا ومالي وصنغي)، وترجع أهمية هذا الموقع في توسطه طرق العابرة التجارية خلال تلك الممالك وكشفت على أن بهذا الموقع كان يسكنه عدد كبير من الحرفيين العاملين بالصناعات الحديدية[2].

وعلى الرغم من أن الدراسات والحفائر الآثارية التي أجريت في الموقع كانت متقطعة وركزت على الطبقات السطحية المؤرخة لفترات زمنية أحدث، إلا أنه تم العثور على عدد كبير من بقايا الأفران التي كانت تستخدم لصهر الحديد بالإضافة إلى العثور على تركيزات كثيرة لسبك الحديد والتي كانت تغطي مساحة كبيرة تمتد لمسافة 17 هتكار، مما يعكس بدوره وجود منطقة شاسعة للتصنيع كانت تمتد لفترات زمنية طويلة وأيضًا متعاقبة زمنيًا، وعلى الرغم من الأهمية التاريخية لهذا الموقع إلا أن المصادر العربية لم تشر إلى أهميته، ولكن ذكره ابن بطوطة بأنه أحد المحطات التجارية الهامة على طريق التجارة الصحراوية[3].

وكان يسافر منه إلى مدينة تنكبت ثم إلى مدينة كوكو ثم إلى بردامة التي لا تسير القوافل إلا في حراستهم ثم إلى تكدا أي إنها أحد المحطات التي يصل منها إلى باقي المدن التجارية الهامة، وكان لها أمير يعينه السلطان للمحافظة على الأمن داخل هذه المدينة التي لا يوجد بها سارق[4].

كما كشفت الحفائر الآثارية التي أجريت في مدينة جاو في صنغي عن وجود بقايا لسبج الحديد في جميع الطبقات الآثارية والتي تمتد زمنيًا من القرن العاشر حتى القرن

(1) Ibid, p. 243.

(2) Togola, T., (1996), op. cit., pp. 92, 96, 100, 102.

(3) Ibid, pp. 91-110.

(4) ابن بطوطة، ص536–540.

الثالث عشر مما يؤكد أن الصناعات الحديدية كانت تتم على نطاق واسع في هذه المواقع فقد عثر على حوالي 195 قطعة آثارية حديدية كان من بينها 24 جزء من سيوف وسكاكين[1].

هكذا أكدت الأدلة الآثارية التي تم اكتشافها خلال فترة دولتي مالي وصنغي أن تقنيات صنع وتشكيل الحديد خلال الفترة من 1400–1600م تعتبر من أهم الركائز التي ساهمت في نمو ممالك مركزية مهمة في السودان الغربي وعلى طول ساحل غينيا في غرب أفريقية[2]؛ مما يقدم دليلاً دامغًا على وجود تلك الصناعة في دولتي مالي وصنغي، فما هي أهم هذه المنتجات التي أنتجها هؤلاء الحدادون، وما مجالات استخدامها في مجتمعات السودان الغربي؟

خامسًا– منتجات الحدادين واستخداماتها:

وقع على عاتق الجماعة الحرفية للحدادين إنتاج مجموعة من المنتجات المتعددة التي سدت حاجة السكان المحليين ووفرت ما يلزمهم في شؤون حياتهم الاقتصادية وحياتهم الخاصة.

فقد مثل إنتاج الحديد قيمة في حد ذاته لدي مجتمعات السودان الغربي، فكان يستخدم في قضاء بعض المصالح، حيث استخدمت القطع منه كوسيلة للتعامل، فكان أهل چني يستعملون قطعًا منه في تسديد ثمن البضائع الزهيدة القيمة كالحليب والخبز

(1) Takezawa, S., Cisse, M., (2012), "Discovery of the Earliest Royal Palace in Gao and its Implications for the history of West Africa", Cahiers d'études Africaines 208, p. 9.

(2) Emma George, R., "The Age of Iron in West Africa", In Heilbrunn Timeline of Art History, New York: The Metropolitan Museum of Art, 2000.

ففي نيجيريا كان الحديد عاملاً أساسيًا لظهور العديد من الممالك المهمة مثل داهومي وبنين وممالك اليوروبا وأيضًا حضارة إيفي وأويو وكل هذه الممالك متصلة مع بعضها تجاريًا وأيضًا اشتركت فيما بينها في معتقدات روحية تتعلق بتقنيات صناعة وتشكيل الحديد مثل الاعتقاد بآلة الحديد أوجون Ogun وهو أول صياد محارب ومؤسس السلالات وارتبط السيف الحديدي بالمعبود أوجون ذلك السيف الذي شكل عنصرًا رمزيًا مهمًا بكل من الأعمال الحضارية والعدوانية.

وغيرهما من البضائع، وكان يتفاوت وزن الواحدة من هذه القطع ما بين الرطل ونصف الرطل أو ربع الرطل[1].

وإلى جانب هذه القطع الصغيرة من الحديد وجدت القضبان الحديدية، واستعملت كعملة وكوسيلة أيضًا لتبادل السلع والتعامل التجاري على مستوي الدولة، وهذه الوسيلة ظلت مستعملة حتى ظهر الأوربيون على سواحل المحيط الأطلنطي، وبدأت تظهر طرق مقايضتهم المكثفة لقطع وقضبان الحديد بالسلع السودانية، مما أدي إلى فقدان هذه الوسيلة لقيمتها المحلية[2].

وكان من أهم المنتجات الحرفية للحدادين الأدوات الحديدية التي أفادت في العمليات الزراعية، فقد كشفت الحفريات الآثارية في مدينة جني عن استخدام أدوات من الحديد في الزراعة وفي الصيد أيضًا، منها السكاكين والفؤوس والرماح، وهذه الأدوات تطورت في صناعتها من الأحجار إلى الحديد، وقد تم استخدام الرمح ذي النهاية الحديدية المدببة في حفر الأرض وتنظيف الحقول من الحشائش واستعمل أيضًا في البحث عن الجذور وتقطيع الأشجار والمزروعات[3].

وكذلك تم استخدام سكاكين ذات مقبض خشبي مدببة كالمسمار للحفر في الزراعة أيضًا وفي حصاد الدرنيات، واستعملوا المناجل في الحصاد وكذلك المعازق والحراب، وتم استخدام بعض الأدوات الحديدية لإزالة الأشجار الكبيرة[4].

---

(1) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، الرياض 1399هـ، ص537.

(2) أحمد الشكري: الشهادات الأفريقية ونزعات تمثيلها للتاريخ المحلي إلى غاية القرن 18م، نموذج السودان الغربي، أفريقيا الغربية، ص64.

(3) Mauny. R: Tableau géographique De l'Ouest African Au Moyen Age, DakkaR, 1961, p. 241;

– سنيكي مودي سيسوكو: الصنغي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، اليونسكو، 1997م، الطبعة الثانية، ص214.

(4) هوبكنز، مرجع سابق، ص86.

وهكذا تعددت المنتجات الحديدية التي استخدمت في الزراعة، وقد حظي حدادو جبال الماندي بشهرة كبيرة وبخاصة في منطقة نياني، وذلك لأنهم اشتهروا بأنهم كانوا يصنعون الأدوات الزراعية المختلفة[1] التي تحدثنا عنها. وكذلك أنتج الحرفيون من الحدادين أدوات حديدية استخدمت في الصيد الذي أنتشر في منطقة السودان الغربي. فقد كان الصيادون يحتاجون إلى أدوات دفاعية مصنوعة من الحديد لاستخدامها في صيد الحيوانات المفترسة، وكذلك تم استخدام الرمح الحديدي لصيد الحيتان[2].

وهناك أدوات حديدية متعددة تم استخدامها في صناعات متعددة كالنجارة والدباغة والحياكة وغيرها من الحرف التي ازدهرت في السودان الغربي، وإلي جانب ذلك يبدو أنهم قد استخدموا الحديد بأحجام مختلفة لكي يطعموا بها الأبواب وأسوار المدن المشهورة باعتبار أن ذلك كان سائدًا في دولة الكانم التي كانت حصونها تبني من القرميد المحروق الذي تظهر فيه تقنية الحدادين في صناعته الجيدة[3].

ومن أهم المنتجات التي أنتجها الحرفيون من الحدادين واستخدمها أهالي السودان الغربي في أمورهم الخاصة أكسيد الحديد الأحمر الذي كانوا يستعملونه في صباغة الجسم، فقد استخدموا ذلك الأكسيد منذ العصر الحجري[4].

كذلك كانوا يصنعون أنواعًا من الحلي السحرية التي كانت عبارة عن حلقات من الحديد تشد بحبل وتربط في الذراع كأساور وكانت تحدث أصواتًا عند الحركة، وكان الفنيون هم الذين كانوا يقومون بصناعتها، وزاد الإقبال على طلبها[5] نظرًا لممارسة السحر في هذه المجتمعات[6].

---

(1) نياني: مرجع سابق، المجلد الرابع، ص176.

(2) هوبكنز، مرجع سابق، ص84، 85.

(3) زيربو: مرجع سابق، القسم الأول، ص260.

(4) م. بوستانسكي: مرجع سابق، ص734، 735.

(5) محيي الدين صابر، مرجع سابق، ص397.

(6) انتشر السحر في مجتمعات مالي وصنغي وظهر منهم كثيرون يمارسون السحر ويعملون به، فقد اشتهرت بعض نساء مدينة جاو بممارسة السحر وكان من عادة الأهالي هناك أن يذهبوا إلى السحرة

كذلك أنتج الحدادون المشغولات الحديدية التي أستخدمها الأهالي في التزين بها، ومن هذه المشغولات أنواع من الحلي المصنوعة من الحديد، وأيضًا الدبابيس الحديدية التي تستعمل في الشعر، والأساور الحديدية، وبعض الأقراط والعقود والخواتم التي استعملها الرجال والنساء كأدوات للزينة، فقد ذكرت المصادر العديد من المشغولات الحديدية التي انتشرت في أفريقيا الغربية في القرن السادس عشر للميلاد[1].

ويعتبر إنتاج الأسلحة من أهم منتجات الحدادين في السودان الغربي. فقد زاد الاهتمام بالصناعات الحديدية التي تسد حاجة الجيش وتسليحه، وبخاصة طوال تلك الفترة من بداية قيام دولة مالي حتى نهاية القرن السادس عشر بنهاية دولة صنغي على يد السعديين، فقد كان الجيش يحتاج باستمرار إلى الأسلحة التي كان يستخدمها في حروبه الدفاعية أو في توسعاته المختلفة[2]. ولهذا كان لابد أن يكون الحدادون مصاحبين للجيش بصورة مستمرة، فقد ذكرت المصادر أنه كان يوجد ضمن فرق الجيش في دولة صنغي فرقة الصناع والحدادين ومعهم الخدم والعمال، وهذه المجموعة كانت تلازم الجيش في وقت خروجه إلى الحروب، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مساهمة الحدادين في تقديم ما يحتاجه الجيش بصورة مستمرة ودائمة[3]حتى يحقق انتصاراته التي لا يمكن أن تتحقق إلا بتوفير هذه الأسلحة الحديدية.

ويعتقدون في كلامهم ويصدقونهم.انظر التفاصيل في: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية، 1985م، ص54؛ العمري: مصدر سابق، ص64، 75.

(1) هوبكنز، مرجع سابق، ص 86.

(2) هناك توسعات شهدتها دولة صنغي في عهد اسكيا محمد وحملات عسكرية في عهد اسكيا داود. انظر تفاصيل ذلك في: محمود كعت، مصدر سابق، ص 70، 115، 116؛ السعيدي: مصدر سابق، ص74، 78، 102، 108.

(3) محمود كعت، مصدر سابق، ص 97؛ محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1996م، ص377.

ومن أهم الأسلحة الحديدية الحراب والسكاكين والرماح وهي عصا طويلة تلبس فيها الحربة، وأيضًا السيوف والسهام والحراب ذات الرؤوس الحديدية، وكذلك كان يرتدي الفرسان تحت سترة الحرب درعًا من الحديد[1]، كذلك لبسوا الخوذ وقمصان الزرد والسروج المعدنية المصنوعة من الحديد.

ومن غير المستبعد أن تكون طريقة صناعة بعض الأسلحة من قبل هؤلاء الحدادين هي نفس الطريقة التي استخدمها الحدادون في دولة البرنو، فكانوا يستخدمون المطرقة ويضربون بها على الوتر الكبير الذي كان يوجد تحت التراب، وهو الحديد المغروز بالخدل والذين كانوا يصنعون منه السهام التي كانوا يطلونها بالطين لإيهام من يقاتلون بها أنها مسمومة وأحيانًا كانوا يصنعون السم ليكون تأثيره قاتل[2].

وقد كشفت الحفائر الآثارية التي أجريت في دولتي مالي وصنغي عن بعض المنتجات الحديدية التي تم العثور عليها منها بعض المكتشفات المرتبطة بصهر الحديد وتشكيلاته المختلفة دون تحديد خاص لأهم منتجاته[3]. كما عثر على قطع آثارية حديدية في مدينة جاو كان من بينها 24 جزء من سيوف وسكاكين وعلى 195 قطعة آثارية حديدية[4].

وتجدر الإشارة بأن نشاط الحدادين لم يقتصر على صناعة الأدوات الحديدية الخاصة بالنشاط الزراعي وصناعة الأسلحة الخاصة بالصيد والحرب فحسب كما سبق وأن ذكرنا بل امتد هذا النشاط ليشمل صناعة الشعارات المقدسة وتمائم للحماية مما يبرز تأصيل الدور الطقسي للحدادين في ممالك السودان الغربي القديمة مرورًا بممالك

(1) مودي سيسكو: مرجع سابق، المجلد الرابع، ص212.

(2) أحمد فرطو، كتاب غزوات السلطان إدريس الوما، ص25.

(3) Nixon, op. cit., pp. 241-243.

(4) Takezawa, s., op. cit., pp. 1-29.

السودان الغربي وحتى بدايات القرن التاسع عشر والعشرين وكل هذا يعكس أهمية علم الآثار الأثنوجرافي كأحد المداخل الهامة لدراسة هذا النشاط[1].

وتجدر الإشارة بأن لإنتاج الحديد تأثير كبير على إفريقيا ليس تجاريًا فحسب بل وكذلك ثقافيًا واجتماعيًا في المعتقدات والطقوس، يتضح ذلك من خلال المعلومات الإثنوجرافية التي تُبين الأهمية الثقافية لتلك الممارسات التي لا تزال تمارس حتى اليوم من قبل الثقافات الإفريقية المختلفة، ساهمت تلك الدراسات في إعادة بناء الأحداث المحيطة بإنتاج الحديد في الماضي.

أما عن طريقة تسويق هذه المنتجات المصنعة والتي أشرنا إليها فكانت كما هو سائد في حوض أنهار فولتا خلال الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر. فقد كان الحدادون في مراكز التعدين هم الذين يتاجرون في منتجاتهم ويستخدمون كرات الحديد المخصصة للحرف الدقيقة بأنفسهم دون وساطة من أحد[2]، وكذلك البمبارا كانوا يحرصون على التجول وبيع بضائعهم بين أهاليهم[3]. أي أن التسويق كان يتم محليًا، فكانوا يشاركون في الأسواق المحلية، ويعرضون بضائعهم في المدن الكبرى مثل تنبكت وجني التي كان بها كثير من الدكاكين الخاصة بالصناع والباعة، وفي الغالب كانوا

(1) هو العلم الذي يهتم بدراسة البقايا المادية للمجتمع التقليدية المعاصرة،ويساعد علم الآثار الأثنوجرافي الآثاريين في إعادة بناء أنماط الحياة القديمة من خلال دراسة التقاليد المادية وغير المادية للمجتمعات الحديثة، وكذلك تساعد في فهم الطريقة التي تم بها صنع الأشياء والغرض الذي منها. يمكن لعلماء الآثار بعد ذلك أن يستنتجوا أن المجتمعات القديمة استخدمت نفس التقنيات التي يستخدمها نظرائهم المعاصرون في ظل مجموعة مماثلة من الظروف البيئية، وتجدر الإشارة أن هذا المدخل البحثي يقدم قدر هام من المعلومات في دراسة المجتمعات الأفريقية التقليدية المعاصرة وعلاقتها بالمجتمعات القديمة؛ للمزيد انظر:

David, N., Kramer, C., & Nicholas, D. (2001), Ethno archaeology in action. Cambridge University Press.

(2) ميشيل ايزارد: شعوب وممالك منعطف النيجر وحوض الفولتا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، اليونسكو، طبعة، 1988م. ص 245.

(3) هوبكنز، مرجع سابق، ص 86.

يستخدمون دكاكينهم البسيطة في عرض بضائعهم المختلفة، وكان مكان ممارسة الحرفة هو في نفس الوقت مكان بيعها بين السكان الذين كانوا يبتاعون منهم هذه المنتجات لسد حاجاتهم المعيشية، ويبدو أن التسويق كان يكفي لحاجة السكان وليس فيه فائض، وعلي الأرجح أيضًا أن هذا التسويق المحلي كان يتم في المنتجات الحديدية المختلفة لكن الأسلحة لم تكن كذلك، فقد كانت الدولة هي التي تتولي عمليات السيطرة على إنتاج هذه الأسلحة، ولا تسمح للحدادين بالتجارة فيها نظرًا لأهميتها بالنسبة لهيمنة الدولة وقوتها وتسليح جيشها.

وهكذا تعددت منتجات الحدادين التي استفادت منها الدولة والمجتمع بعناصره المختلفة في بلاد السودان الغربي، فما هي أوضاع هؤلاء الحدادين ومظاهر حياتهم الاجتماعية؟

سادسًا- مظاهر الحياة الاجتماعية للحدادين:

تمتع الحدادون بوضع متميز داخل بلادهم لأنهم كانوا يملكون الأدوات الحديدية التي مكنتهم من التعامل مع أي شيء، فمنذ العصر الحديدي كان هؤلاء الحدادون من ضمن الطبقات الاجتماعية العليا[1]،ولكن مع التغير الاجتماعي الذي شهدته المنطقة في ظل الدول التي قامت في السودان الغربي كان الحدادون ضمن طبقة العامة المهمشة، ولكن كان لهم تميز عن بقية شرائح العامة لموروثهم الحرفي الذي سمح لهم بمكانة متميزة عن بقية أصحاب الحرف الأخرى[2].

فقد تميز هؤلاء الحدادون بكفاءتهم في صناعتهم حيث اكتسبت منتجاتهم قيمة عالية من الجودة[3] كذلك حظيت القبائل التي تعمل بالحدادة باحترام كبير وتقدير لأنها كانت تتعامل بالسحر والتعدين معًا، فقد كانت المهن التي ارتبطت بالنار يتوارثها أفرادها في

(1) Shinnie, p. L & Hauland, R, (EDS). op. cit., p. 15.

(2) Levtzion, Nehemia & Spaulding, Jay: Medieval West Africa Views from Arab Scholars and Merchants, Markus WienerPublishers, United States, 2003, p. 119.

(3) LAvicolette, Adrio: op. cit., pp. 21, 38.

إطار تجمعات عائلية وعشائرية محددة ولذلك للحفاظ على أسرار مهنتهم والحفاظ على قوتهم الاقتصادية بالإضافة إلى السحر الذي يرتبط بالنار، ويستطيع هؤلاء الحرفيون ضبطه واستعماله[1].

وتجدر الإشارة بأن المكانة الهامة التي تمتع بها الحدادون في السودان الغربي من خلال فتراتي دولتي مالي وصنغي تضرب بجذورها في الفترات السابقة، حيث مارس الحدادون في الممالك القديمة في السودان الغربي أدوارًا هامة وغامضة في المجتمع سياسيًا واجتماعيًا، فكانوا أقوياء للغاية وكانوا على صلة بزعيم القرية أو القبيلة، وكان هناك اعتقاد بأنهم يتحكمون في القوى الطبيعية المتأصلة في جميع الأشياء وعلى اتصال وثيق بأرواح الأسلاف[2].

وكان من الممكن أن يرتقي الحدادون إلى مكانة أعلي في حرفتهم وذلك عندما يتقنون حرفتهم ويصبحون مؤهلين إلى أن يرتقوا إلى حرفة أعلي من الحدادة وهي صياغة الذهب، تلك الحرفة التي تمتعت بمكانة كبيرة ومارسها فئة من الحدادين تدعي صائغين أو صياغ وذلك في مقاطعة الماندي، وهؤلاء كانوا يستقرون في المراكز الحضارية الكبرى في التكرور وفي الجولوف، واشتهروا بأنهم كانوا أشهر الحرفيين في أفريقيا الغربية كلها[3].

وهؤلاء الحدادون كان لهم حضور واسع في مدن كثيرة في السودان الغربي وكونوا لأنفسهم مجتمعًا حضريًا ذا نشاط حرفي متميز وعاشوا في عدد من المدن المختلفة بينتها نتائج الحفائر الآثارية فقد كان لهم حضور في مدينة تادمكة المعروفة باسم السوق[4]، وأيضًا في مدينة ميما التي سكنها عدد من الحرفيين الذين يعملون بحرف مختلفة وكان منهم من يعمل بصناعة الحديد[5].

---

(1) Baland, Er: op. cit., p. 182.

(2) Ross, Emma George. "The Age of Iron in west Africa", In Heilbrunn Timeline of Art History, New York: The Metropolitan Museum of Art, 2000.

(3) نياني، مرجع سابق، ص176، 181.

(4) Nixon, op. cit., pp. 241-243.

(5) Togolai, op. cit., pp. 91-110.

وكذلك فقد كان لهم وجود وحضور في مدينة نياني في عهد سنديانا (ماري باطة) وهي من أهم المدن التي ظهر فيها الحدادون[1]، وأيضًا سكنوا مدينة جاو والتي كانت بها صناعات حديدية على نطاقًا واسعًا[2]، وكان لهم وجود في مدينة تنبكت التي اشتهر أهلها بصنائع متعددة مثل الخياطة والنجارة والحدادة، كما تميزوا بقدرتهم على تقليد الأشياء التي يرونها من المصنوعات[3]، كذلك كان للحدادين حضور كبير في مدينة چني وبخاصة في عهد دولة صنغي، فقد احتلت هذه المدينة مكانة تجارية وحرفية متميزة وبخاصة في حرفة الحدادة[4].

وهؤلاء الحدادون الذين استقروا في هذه المدن المختلفة كانت لهم مظاهر خاصة لحياتهم الاجتماعية، فنجد أنهم لا يختلفون عن بقية عناصر العامة من الحرفيين وغيرهم، فكانت مساكن چني التي كان يقطن بها عدد كبير من الحدادين عبارة عن أكواخ مبنية من الطين ومغطاة بالقش[5]، وكذلك مدينة تنبكت كانت مساكن الحدادين فيها أيضًا عبارة عن أكواخ مصنوعة من أعمدة مطلية بالطين والسقوف من القش أيضًا[6]، ثم تطورت هذه المساكن فبنوا حوائط من الطين على هذه المساكن وأحاطوها بأسوار غير مرتفعة بحيث تكشف ما بداخلها[7].

أما مدينة كاغ (چاو) فكانت بيوت الحرفيين فيها أقل مستوي وسيئة بالنسبة لبيوت الأسرة الحاكمة وكبار رجال الدولة[8] ولم يكن هذا الحال في مدينة چاو وحدها، بل

---

(1) نياني، مرجع سابق، ص149.

(2) Takezawa, op. cit., pp. 1-29.

(3) أحمد بابير الأرواني: السعادة الأبدية في التعرف بعلماء تنبكت البهية، دراسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بنغازي، الطبعة الأولى، 2001م، ص77.

(4) LAvicolette, ADRia, op. cit., p. 7.

(5) الحسن الوزان، مصدر سابق، ص538.

(6) المصدر السابق، ص540.

(7) السعيدي: مصدر سابق، ص 21.

(8) الحسن الوزان: مصدر سابق، ص 543.

- Shillington, Kevin: history of Africa Macmillan, 1995, p. 105.

كان في كل المدن الأخرى التي توجد حول مدينة تنبكت، وقد تفرد الحدادون بأنهم كانوا يسكنون في أحياء خاصة بهم، ويتجمعون بعضهم مع بعض، وكان هذا حال كل الحرف الموجودة في السودان الغربي في تلك الفترة.

أما عن ملابسهم فإنهم كانوا مثل عامة مدينة تنبكت يسترون عوراتهم ببعض أوراق الأشجار أو بمئز صغير، وكانوا في الغالب يلبسون نعالاً مصنوعة من جلود البعير لتقيهم من التعرض لأخطار مهنتهم(1)، بالإضافة إلى الملابس المخصصة لممارسة الحرفة، وهي تعد من ضمن عادتهم التي كان يتوارثها بعضهم عن بعض، وكانت هذه الملابس تعد من لحاء الشجر الذي لا يمسه الدهن(2) حتى يتحمل النار التي يشعلونها طوال فترة صهر الحديد، وأيضًا في أوقات تصنيع الأدوات الحديدية.

أما عن مأكلهم ومشربهم فنجد أنهم قد شاركوا بقية الحرفيين والطبقات المهمشة طعامهم الذي يتكون من الشعير والأرز والسمك والحليب(3)ويأكلون حبات الفول المقلية، وكذلك كانوا يتناولون بعض ثمار الأشجار، مثل ثمرة الأجاص التي كانت شديدة الحلاوة، فكانوا يدقونها ويستخرجون منها الزيت، فيقلون به ويدهنون به(4)، وكانوا يشربون الحليب ويشربون مشروبًا يسمي الدَفْتُو، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوطًا باللبن والعسل(5).

ومما لا شك فيه أن هؤلاء الحدادين كانوا يشاركون بقية طبقات المجتمع الأعياد والاحتفالات الدينية والخاصة، فقد كان لأصحاب كل حرفة طقوسها الخاصة حيث كانوا يحرصون على زيارة بعضهم البعض(6)وليس لدينا التفاصيل الدقيقة عن خصوصية وطريقة ما كانوا يقيمونه من احتفالات.

---

(1) الحسن الوزان: مصدر سابق، ص 445، 545.

(2) محيي الدين صابر، مرجع سابق، ص377.

(3) الحسن الوزان: مصدر سابق، ص 537، 539، 540.

(4) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص 527.

(5) المصدر السابق، ص 539، 541.

(6) Lavicolette, Adria, op, cit., p. 21.

وعلي الرغم من صمت كثير من المصادر عن ذكر أي تفاصيل خاصة بالمشاكل والمحن التي تعرض لها الحدادون بصفة خاصة في مجتمع السودان الغربي فإننا من خلال رصدنا للاضطرابات السياسية والمجاعات والأوبئة وغيرها من المحن التي تعرضت لها المنطقة نقف على حقيقة هامة وهي أن الحدادين كانوا مثل باقي الحرفيين يعانون من تلك المشاكل والمحن وتصمت المصادر عن ذكر معاناة هؤلاء الحدادين ولكننا نرجح أنها معاناة شملت جميع الحرفيين ومنهم الحدادون بالطبع[1].

أما في الأوقات العادية فقد تمتع الحدادون بوضع اجتماعي متميز، فقد ارتبطوا بالطبقة الثرية في المجتمع وحظوا بحمايتها في كثير من الأوقات نظرًا لحاجة هؤلاء الدائمة إلى مهارة هؤلاء الحدادين[2]فهناك إشارة تذكر أن ورش الحدادة الكبيرة في مدينة نياني كانت ملكية خاصة للسلاطين، وأن هؤلاء السلاطين احتكروا إنتاج هذه الورش لحسابهم الخاص[3] وبخاصة ورش إنتاج الأسلحة وبالتالي كان هؤلاء الحدادون الموجودون في تلك الورش يحظون باهتمام كبير من جانب هؤلاء السلاطين.

وقد حافظ هؤلاء الحدادون على قدسية حرفتهم وخصوصياتها فترة طويلة من الزمن، إلا أن هذه المكانة ما لبثت أن تغيرت وفقدوا مكانتهم وذلك عندما جاء الأوروبيون إلى

(1) فقد تعرض الحدادون مثلهم مثل بقية الحرفيين وأفراد المجتمع إلى بطش (سني علي) عندما هاجم الطوارق في عام 873هـ/ 1468م، في مدينة تنبكت فخرج هؤلاء مع الأهالي لكي ينقذوا أنفسهم وكذلك عندما دخل (سني علي) هذه المدينة مما كان له أكبر الأثر في سوء أحوالهم، وكذلك عندما تعرضت مدينة جني لحصاره أيضًا لمدة أربع سنوات حتى أجبر أهلها على الاستسلام، فبدون شكُ طوال تلك الفترة عاني الأهالي من المجاعات وكان منهم الحدادون، وكذلك تعرضوا أيضًا للأوبئة التي تعرضت لها البلاد، وأيضًا عندما تعرضت مدينة تنبكت إلى الحريق أخذ نصف سكانها في إخلاء أماكنهم وكان منهم الحدادون، وهكذا تعددت المحن التي عاني منها الحدادون مثلهم مثل بقية الحرفيين الآخرين. انظر تفاصيل أخري في: محمود كعت، مصدر سابق، ص 49، السعيدي، مصدر سابق، ص 15، 16، 41، 46، 47، 65، 92، 93، الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 542، 540.

(2) محمود كعت، مصدر سابق، ص 55، 57.

(3) نياني، مرجع سابق، ص 182.

ساحل غرب أفريقيا وكثرت معهم القضبان الحديدية التي كانوا يقايضون بها البضائع السودانية، وهذا أدي إلى فقدان صناعة الحديد المحلية قدسيتها ومكانتها التي كانت تتمتع بها من قبل[1].

أما إذا بحثنا عن الالتزامات التي التزم بها الحدادون تجاه السلطة، فكان هؤلاء الحدادون عليهم واجبات ولهم حقوق محددة ولم يكن من حق السلاطين أو النبلاء وسائر الرجال الأحرار أن يطالبوا أصحاب الحرفة ومنهم بالطبع الحدادون بأكثر مما يفرضه عليهم العرف من التزامات[2].

وقد أوضحت المصادر نوعية الالتزامات التي فرضت عليهم منذ عهد السلطان سني بار وهي أن يدفع له كل بيت منهم مائة رمح ومائة سهم كل عام[3]. وظلوا ملتزمين بدفع هذه الغرامة حتى لما دخلوا في حوذة أسكيا محمد ظلوا أيضًا يؤدون ما فرض عليهم، وهذا يعتبر دليلاً على خضوعهم وولائهم للسلطة السياسية الحاكمة.

ولم تذكر المصادر أي اعتراض من جانب هؤلاء الحدادين أو قيامهم بأحداث شغب وهو ما يشير إلى أنهم كانوا من الحرفيين المطيعين والذين اعتبرتهم السلطة الحاكمة من ضمن رجالها الذين لا يمكن أن تستغنى عنهم أبدًا.

وعندما تعرضت دولة صنغي إلى الغزو السعدي في عام 999هـ/1591م عاني هؤلاء الحدادون وتعرضت حرفتهم لخطر كبير نتيجة لهذا الغزو[4]مثلهم مثل بقية أصحاب الحرف الأخرى الموجودة في المدن الكبرى، ويمكن القول أنه كان مطلوبًا منهم العمل بجد في ظل هذه الظروف الصعبة لسد حاجة جيش بلادهم.

هكذا كان حال الحدادين في بلاد السودان الغربي وخاتصة في عهد دولتي مالي وصنغي، حيث كانوا يمثلون نموذجًا متميزًا من بين بقية الحرف التي حافظت على مكانتها في المجتمع.

---

(1) أحمد الشكري، مرجع سابق، ص 64.

(2) نياني، مرجع سابق، 181.

(3) محمود كعت، مصدر سابق، ص 55، 57، 58.

(4) السعيدي، مصدر سابق، ص 140.

- **الخاتمة**

أكدت الدراسة على الأصول المحلية لأصول الصناعات الحديدية في السودان الغربي؛ مما يؤكد على حقيقة هامة وهي قدم ممارسة حرفة الحدادة هناك.

أثبتت هذه الدراسة أن هناك عوامل كثيرة ساعدت على تشجيع حرفة الحدادة في السودان الغربي كان منها توفر مادة خام الحديد منذ فترات قديمة في مناطق كثيرة هناك، وأن هذه الحرفة كانت من الحرف القديمة التي كان لها جذور وأصالة ومارسها السكان منذ فترات مبكرة.

وأكدت هذه الدراسة أيضًاعلى أن الدول التي قامت في السودان الغربي شجعت على ممارسة هذه الحرفة ووضعتها تحت عيونها وأثبتت أيضًا أن الحدادين كانوا ينتمون إلى مجموعة إثنية واحدة ومن قبائل أصولها واحدة، وهذا أدي إلى زيادة تمسكهم بعضهم ببعض وكونوا مجتمعًا حرفيا قويًاأنتشر في المدن المختلفة في السودان الغربي.

كما بنيت هذه الدراسة أن صهر الحديد وتصنيعه في السودان الغربي كان له طقوس قديمة وأسرار سحرية لا يعرفها إلا الجماعات التي كانت تعمل بهذه الحرفة، وكانت النتيجة ارتباط الأعمال السحرية دائمًا بهذه الحرفة التي تستعمل النار ومن ثم ارتبط السحر بالحدادين.

وثبت من خلال الدراسة مكانة الحدادين في السودان الغربي التي تضرب بجذورها في الممالك القديمة حيث مارسوا أدوارًا متعددة وتحكموا في القوى الطبيعية للأشياء وحافظوا على هذه المكانة في فترة دولتي مالي وصنغي وتحكموا في المجتمع.

وثبت من خلال الدراسة أن نشاط الحدادين لم يقتصر على صناعة الأدوات الحديدية المختلفة بل شمل صناعة الشعرات المقدسة والتمائم مما يبرز تأصيل الدور الطقسي للحدادين قديمًا وحديثًا؛ مما يؤكد على أهمية علم الآثار الإنثرجرافي كأحد مداخل الدراسة لهذا النشاط وغيره من الأنشطة الحرفية الأخرى.

برهنت المكتشفات الأثارية على العثور على عدد من بقايا الأفران التي تستخدم لصهر الحديد وظهور منتجات حديدية متعددة في مواقع تادمكة/السوق وميما وفي مدينة جاو في صنغي؛ مما يدل على ازدهار الصناعات الحديدية هناك، وعلى أن الحدادون كان لهم حضور واسع في تلك المدن.

وقد أظهرت هذه الدراسة أيضًاتعدد المنتجات الحديدية التي صنعها الحدادون بأيديهم وتفوقوا في إجادة حرفتهم مما كان له أكبر الأثر في دفع وتقوية حركة النشاط العسكري والحضاري الذي شهدته منطقة السودان الغربيبالإضافة إلى أن هؤلاء الحدادين كان هدفهم تغطية الحاجات المعيشية للأهالي وسد حاجاتهم، وليس لديهم فائض وبخاصة في الأسلحة التي كانت تحتكرها الدولة لحسابها الخاص، ونتج عن ذلك أن تمتع هؤلاء الحرفيون وخاصة الحدادون بوضع ممتاز داخل مدن السودان الغربي وكونوا لأنفسهم مجتمعًا حرفيًا سمح لهم بمكانة متميزة عن بقية الحرف الأخرى، وكذلك كانت مظاهر حياتهم الاجتماعية لا تختلف عن بقية الحرفيين الآخرين.

وقد أثبتت الدراسة أيضًاأن حرفة الحدادة حظيت باهتمام وتقدير من سلطة الدولة التي فرضت على أربابها من الحدادين أنواعًا من الالتزامات ظلوا يقدمونها ويلتزمون بها على الدوام.

وبذلك تكون هذه الدراسة قد أكدت على دور الحدادين في بلاد السودان الغربي وخاصة في عهد دولتي مالي وصنغي، وعلي أنهم قد ساهموا في تقديم الأدوات التي ساعدت على دفع حركة التطور الحضاري في منطقة السودان الغربي بشكل كبير.

الملاحق

خريطة رقم (1)

مواقع العصر الحديدي في غرب أفريقيا

Phillopson, D.W: OP. Cit., p 169.

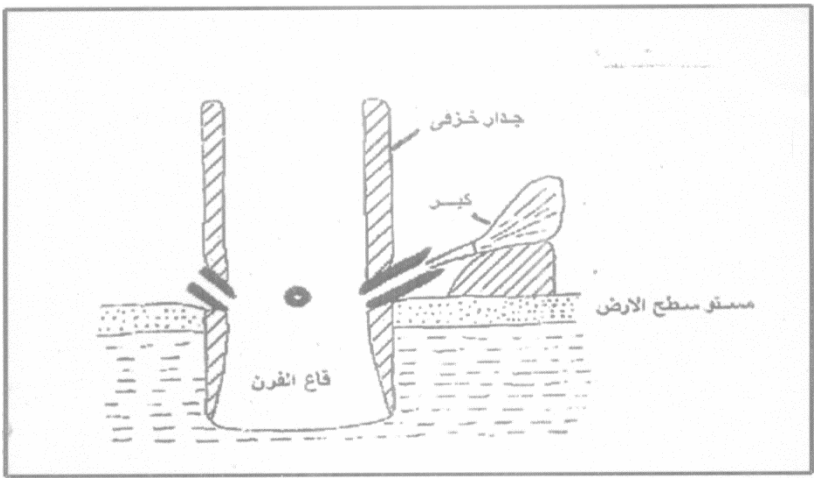

شكل رقم (2)

فرن صهر

Phillopson,D.W: OP. Cit., P 164

قائمة المصار والمراجع

أولاً–المصادر العربية:

- ابن بطوطة: (أبو عبد الله محمد عبد الله اللواتي، ت 779هـ/ 1377م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، بيروت. د.ت.
- الحسن الوزان (الحسن بن محمد الوزان، ت 960هـ/ 1552م): وصف أفريقيا، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كلية العلوم الاجتماعية، الرياض 1399هـ.
- الحميري (محمد بن عبد المنعم الحميري، ت 727هـ/ 1326م): كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية 1980م.
- ابن رستة (أبو على أحمد بن عمر، ت 300هـ/ 912م): الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، 1892م.
- ابن سعيد (أبو الحسن على بن سعيد المغربي ت 673هـ/1275م):كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت 1970م.
- السعيدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعيدي، ت 1067هـ/1656م): ملوك السودان أهل سنغي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، نشره هوداس، مطبعة أنجي، باريس 1898م.
- السيوطي: (عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري ت 911هـ/ 1505م): الحاوي في الفتاوي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الأول، د.ت.
- العمرى: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيي بن فضل العمرى، ت 749هـ/ 1349م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق وتعليق الدكتور مصطفي أبو ضيف أحمد، الطبعة الأولي، مطبعة النجاح الحديث، الدار البيضاء 1988م.
- محمود كعت (أبو الحاج المتوكل كعت الكرمني، ت 1002هـ/1593م): تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشره هوداس ودولافوس، مطبعة إنجي باريس 1913م.

- المقدسي (شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر، ت 380هـ/990م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن 1877م.

ثانيًا–المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم طرخان (دكتور): دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.
- أحمد بابير الأرواني: السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، دراسة وتحقيق الهادي مبروك الدالي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الجماهيرية العربية الليبية، بنغازي، الطبعة الأولي 2001م.
- أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي، إصدارات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م.
- ب– واى– آنداه: غرب أفريقيا قبل القرن السابع، المجلد الثاني، اليونسكو.
- ثورستان شوا: أفريقيا الغربية في ما قبل التاريخ، المجلد الأول، تاريخ أفريقيا العام اليونسكو والمشرف على المجلد ج. كى. زيربو.
- جوزيف كي زيربو: تاريخ أفريقيا السوداء، ترجمة عقيل الشيخ حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، الطبعة الأولي، 2001م.
- د.و. فيلبسون: بدايات العصر الحديدي، المجلد الثاني، اليونسكو.
- عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493– 1591م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م.
- م. بوسنانسكي: المجتمعات الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى في العصر الحديدي المبكر، المجلد الثاني من تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو.
- محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1960م.
- محيي الدين صابر: التغير الحضاري في مجتمع أفريقي، دراسة ميدانية عن قبائل الأزندي (نيام نيام)، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م.

- ميشيل إيزرارد: شعوب وممالك منعطف النيجر وحوض الفولتا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، اليونسكو، طبعة 1988م.
- مودى سيسوكو: الصنغي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، المجلد الرابع، اليونسكو، الطبعة الثانية 1997م.
- نياني: مالي والتوسع الثاني للماندانغ، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، اليونسكو 1997م.
- هوبكنز. أ. ج: التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1998م.

ثالثًا–الدوريات العربية:

- إبراهيم على طرخان: إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الثامن، 1981م.

رابعًا–المراجع الأجنبية:

- Baland, E. R. & Forgeron Dictionaries des Crilisatis Africainea, 1968.
- Bocoum, H. (ed.) (2004). The Origins of Iron Metallurgy in Africa New Light on its antiquity; West and Central Africa, UNESCO Publishing.
- C. C. Femesia: States of the Central Sudan Athous and years of West African.
- Charlotte, Beck: The oxford companion to Archaeology, Oxford University Press, New York, 1996.
- Emma George, R. "The Age of Iron in West Africa", In Heilbrunn Timeline of Art History. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2000.
- LaViolette, Adria: Ethno- Archaeology in Jenne Mali, Craft and Status Among Smiths, Potters and Masons, Cambridge Monographs in African Archaeology, 2000.
- Levtzion, Nehemia & Spaulding, Jay: Medieval West Africa Views from Arab Scholars and Merchants, Markus Wiener Publishers, United States, 2003.

- Liverani, M. (2000) Looking for the southern frontier of the Garamantes. Sahara 12.
- Mauny. R: Tableau géographique De l'Ouest African Au Moyen Age, DakkaR, 1961.
- Mcintosh, Roderick. J, The peoples of the Middle Niger the Islam of Gold, Black Well Publishers, USA, 1998.
- Palmer, H. R.: Sudanese Memoirs, vol. 3, London 1967.
- Shillington, Kevin: history of Africa Macmillan, 1995.
- Takezawa, S., Cisse, M., (2012), "Discovery of the Earliest Royal Palace in Gao and its Implications for the history of West Africa", Cahiers d'études Africaines 208.

خامسًا- الدوريات الأجنبية:

- David, N., Kramer, C., & Nicholas, D. (2001), Ethno-archaeology in action. Cambridge University Press.
- Diop, C. A. (1976). L'usage du feren Afrique. Nyame Akuma 53.
- Eggert, M. (2014). "Early Iron in West and Central Africa", In Breunig, P (ed.), Nok: African Sculpture in Archaeological Context. Frankfurt, Germany: Africa Magna Verlag Press.
- Fagan. B.M.: Radiocarbon dates for sub-Saharan, Africa IV, JAH vol. 10, No. 1, 1967.
- Fage, J.D (E.D.): The Cambridge History of African from C. 500 BC. To AD. 1050, Vol. 12, London & New York Cambridge University Press, 1978.
- Fuglestad By Finn: Arecolnsideration of Hausa History Before the jihad, journal of African History, x.x, 3 (1978).
- Garrard, T. (1982), Myth and Metrology: The Early Trans-Saharan gold Trade. Journal of African History, 23.
- Holl, A. (2020). "The Origins of African Metallurgies", Oxford Research Encyclopedias. 22(4).
- Mcintosh, Roderick: the pulse Model: genesis and Accommodation of specialization in the Middle Niger, Journal of African History vol. 34, No. 2, 1993.
- Mcintosk, R., McIntosh, S., (1981) "The Inland Niger Delta Before the Empire of Mali: Evidence from Jenn-Jeno", The Journal of African History 22, No. 1, (1981).

- Miller, D., Van Der Merwe, N. (1994) "Early Metal Working in sub Saharan Africa", Journal of African History, 35.
- Nixon, S., (2009), Excavating Essouk-Tadmakka (Mali): New archaeological investigations of early Islamic trans-Saharan Trade, Azania: Archaeological Research in Africa, 44:2.
- Oliver, R., The Problem of the Bantu Expansion, JAH, Vol. 7, No. 3. 1966.
- Phillipson, D, W.: African Archaeology, Cambridge University Press, 1985.
- Roland Oliver & Anthong Atmore: Medieval Africa 1250-1800, Cambridge University Press, United Kingdom, 2001.
- Shinine, P.L, & Haaland, R. (EDS): African Iron Working: Ancient and Traditional, New York, Norwegian University Press 1985.
- Tigger, B. G (1969). The myth of Meroe and the African Iron Age. International Journal of African Historical Studies, 2.
- Togola, T., (1996), Iron Age Occupation in the Méma Region, Mali, The African Archaeological Review, 13:2.